تحليل سوسيولوجي لمتلازمة التنمية في المجتمعات المتخلفة

Sociological analysis of development syndrome in underdeveloped societies

أ.د . سحوان عطاءالله د. عبد الستار مركمال

جامعة الجلفة

ملخص بالعربية :

سوسيولوجيا التنمية تقوم على أساسين: تشخيص المتلازمة المرضية للتخلف الحضاري، و ذلك بقراءة علمية لجداول القيم و المعايير المنتشرة في الجماعة، ثم متابعة تشخيص أنواع النزيف الداخلي في الجسم التاريخي للأمة و الدولة لمادتي المال و الوقت، ثم وضع مشروع تنمية متكاملة و شاملة من خلال ما يدلي به العلماء الأفذاذ المتخصصون في علم الاجتماع، و علم النفس، و علم الاقتصاد، علم التاريخ، و علم الفلسفة.

الكلمات المفتاحية:

المجتمعات المتخلفة، متلازمة التنمية، الأمراض الاجتماعية، القيم، المعايير، المال، الوقت، المجازر التاريخية العظمى، مشروع التنمية المتكاملة، الصيدلة التاريخية.

Summary in English:

Sociology of development is based on two principles: Diagnosis of the disease syndrome of cultural backwardness, by reading the scientific scales of values and standards prevalent in the group, and then follow the diagnosis of internal bleeding types in the historical body of the nation and state of money and time, and then develop an integrated development project through What is being done by the great scholars of sociology, psychology, economics, history, and philosophy.

key words:

Backward societies, development syndrome, social diseases, values, standards, money, time, great historical massacres, integrated development project, historical pharmacy.

مقدمة:

لا تزال الشعوب و الامم تضع المشاريع الاقتصادية و الثقافية و السياسية بهدف اللحاق بركب الحداثة و الحضارة كمنظومة اجتماعية منتجة للحلول لمختلف الأمراض التي توجد بالجسم التاريخي للدولة و الأمة، بيد أن كثيرا من الأمم حدث لها فشل تاريخي مريع نتيجة التشخيص الخاطئ و العلاج الغير مناسب، إذ أن كل المعادلات الاجتماعية تعتبر من أصعب المعادلات في تاريخ البشر، تحليلا و تفكيكا و علاجا، نظرا لكثرة المتغيرات المتواجدة في طرفيها، فحل 1000 معادلة رياضية أسهل من حل معادلة اجتماعية واحدة، و لهذا يستلزم لتوطين النهضة و الحضارة و المدنية في أي جماعة أن يشرف على العملية العلماء الأفذاذ و الساسة الأبطال و أخص بالذكر هنا: علماء النفس، علماء الاجتماع، علماء الاقتصاد، و علماء التاريخ، و علماء الفلسفة.

و أقصد بالساسة الأبطال الأشخاص الذين بقوا في مناعة تاريخية من جراثيم البيئة المتخلفة الحاملة للقيم الثقافية السلبية وسط ظلام التخلف الحضاري و وضع هؤلاء الأبطال نصب عينهم هدفان أساسيان: إنقاذ أنفسهم ثم إنقاذ الجماعة التاريخية قبل أن تلتهمها" **شلالات نياغرا**"، إنهم أولئك الذين يعفيهم المفكر الاجتماعي مالك ابن نبي: حملة ثقافة الواجب و التفاؤل، هؤلاء الذين يضحون بالمصلحة الخاصة من أجل تحقيق المصالح العامة، كما أن التنمية تتم على مستويين أساسين: المستوى السياسي الاقتصادي، و المستوى التربوي الثقافي حيث يتم تغيير العلاقات على مستوى كل المنظمات من حالة الصراع إلى حالة التعاون ، إن هذا التحول الحادث على مستوى العلاقات الاجتماعية و نمط القيادات الاجتماعية: من الصراع إلى التعاون و

من الوثنية إلى البطولة هو المؤشر الأول على أن الجماعة وضعت قدميها على سكة الإصلاحات الحقيقية و العميقة لإنقاذ المجتمع من متلازمة التخلف الحضاري و توطين التنمية الشاملة و المتكاملة في الخريطة التاريخية للمجتمع، إنها مسالة حياة أو موت على مستوى الجسم التاريخي للمجتمع، بل إن القراءة التاريخية العميقة للحضارات تدرك من خلالها أن الإنسان يفقد خصائصه العليا مباشرة عندما ترحل الحضارة من أرضه و يحل محلها ظلام التخلف الحضاري، و يتحول الإنسان من كائن تاريخي يمارس وظائفه السوسيولوجية العليا: العلم و القراءة و الكتابة و النقد الشامل إلى كائن بيولوجي يأكل و يشرب و ينام و يتكاثر كالحشرات و بقية الكائنات ، إنها لحظة الفجيعة التاريخية الكبرى المسماة السكة التاريخية حينما تحل بالجماعة.

[1]-<u>التسجيل التاريخي للأمراض الاجتماعية على مستوى القيم و المعايير و العادات و التقاليد</u>:

إن القيم الثقافية و المعايير و التقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع تعطي دلالة واضحة عن الوضع التاريخي للمجتمع و ما يرتبط بذلك من شبكة العلاقات و الأحوال التاريخية للأمة و الدولة. كما أن الأمراض تسجل بأمانة على مستوى القيم الثقافية المتحركة في الجسم التاريخي للمجتمع ، حيث ترسخ في زمن استيلاء متلازمة التخلف الحضاري على المجتمع كثيرا من القيم الثقافية السلبية على مستوى الفرد و الجماعة تعمل بشكل تدريجي على الهدم التاريخي للبناء الاجتماعي للأمة و الدولة و التي تؤول بالتدرج التاريخي إلى حالة من الأنوميا و التسيب العام و اللامبالاة و دخول الجماعة في غيبوبة تاريخية، إنها اللحظة التاريخية الفجيعة التي تفقد فيها الجماعة السيطرة على مصيرها و تصبح متجهة اتجاها حتميا نحو التعفن الاجتماعي.

إن السوسيولوجي الحاذق هو الذي يحلل بدقة نسبة القيم الثقافية السلبية بلغة الرياضيات و الإحصاء للكشف المبكر على الأمراض و علاجها بمختلف العقاقير و الأدوية قبل أن يستفحل المرض و يصبح متلازمة مزمنة .

" تعاني البلدان المتخلفة من سوء الظروف التاريخية و الاجتماعية و النفسية و الروحية و الاقتصادية و السياسية، مما أدى إلى إشكالية الثقافة المتمثلة في ظهور وطغيان القيم الثقافية السلبية على القيم الثقافية الايجابية، هذه القيم الثقافية السلبية التي ظلت تعرقل الجهود المبذولة في المشاريع التنموية.وستبقى العامل الرئيسي الحائل دون نجاح المشاريع التنموية لذلك يجب تدارك ذلك، من خلال دراسة القيم الثقافية الايجابية و القيم الثقافية السلبية، و معرفة تهيئة الظروف التاريخية و الاجتماعية و النفسية و الروحية و الاقتصادية و السياسية لتأسيس و تأصيل القيم الثقافية الايجابية و القضاء على القيم السلبية " [1] (1)

هذه القيم الثقافية السلبية المنتشرة في المجتمع هي التي تحدد نوعية المجتمع و حالة الشبكة الاجتماعية و ما يعرض فيها من أمراض تهدد كيان المجتمع و الجماعة، و في حالة ما إذا

[1]- رشيد زرواتي، إشكالية الثقافة في التنمية بالبلدان المتخلفة، دار عياش للطباعة والنشر، ط 1، الجزائر، 2011، ص: 197.

كانت القيم الثقافية ايجابية فإن النسق الاجتماعي يكون في حالة توازن مفرزا للعلاقات التعاونية المثمرة للطاقة المالية و الطاقة الزمانية.

" إن الفرق بين هذا و ذاك من وجود مقاييس أي قيم اجتماعية و قواعد و أعراف راسخة مشتركة و يؤمن بها و يدافع عنها و يتعلق بها و يجعلها معيارا لسلوكه و تفكيره، و أن هذه القيم و القواعد الثابتة التي وصل لها مغروزة معا في الواقع الموضوعي و الممارسة و في العقل و في العقيدة و في الخيال و الشعور، و أنها أصبحت رديفا للعدل، أي لاحترام كل طرق حقوق الطرف الآخر، و الخضوع للحق، و هي لم تصبح كذلك إلا أنها أظهرت فاعليتها في تمكين المجتمع من السيطرة على الحضارة المادية و التحكم بالبيئة المحيطة و بالواقع، و من أن يكون في التاريخ و فاعلا فيه و لم تستطيع أن تكون كل ذلك إلا لأنها كانت في أصل هذه الحضارة و ملهمتها، و لأن الثقافة التي تستند إليها مازالت ثقافة عضوية فاعلة و قادرة على استيعاب الواقع و الرد عليه و إيجاد الحلول الملائمة لما يطرحه عليها، و لما يتفجر عنه في كل يوم تاريخ الحضارة، فإذا حصل و أخفقت هذه الثقافة في التفاعل مع الواقع و التاريخ و الرد عليهما، حكمت على المدنية التي أنشأتها بالفناء و بالمقابل يعيش المجتمع البربري بدون مقاييس أي بدون قواعد معقولة و منظمة و مقبولة عموما، سواء كانت مقاييس روحية أو عقلية أو مادية، و مقياسه الوحيد هو القوة المجردة أي البطش الذي ينظم في الأسرة و المدرسة و الدولة و المجتمع علاقات الأفراد و الجماعات فيما بينهم، و تحركه غريزة التسلط أو الخوف أو العدوان بديلا للمباراة في الإبداع و الإنجاز و المواهب، و تتحكم به، نفسيا و واقعيا، قوى لا يستطيع و لا يعرف السيطرة عليها، فيخرجها في صورة مؤامرات فردية أو عشائرية أو طائفية أو سياسية" [2] .

و هكذا تتمظهر هذه القيم الثقافية عبر الأجيال في شكل عادات مستحكمة تسير و تدير السلوك الاجتماعي، في كل المنظمات على مستوى الماكرو سوسيولوجي و على مستوى الميكرو سوسيولوجي، كما أن التقاليد الراكدة و المتحجرة تمثل الحجر الأساس في ثقافة الجمود و اللا فاعلية و عرقلة الإبداعات.

" إن التقاليد هي التي تحدد الثقافة، كما أنها توجه التفكير نحو السلوك المعياري، مما يعني أنها تقيد التفكير و بالتالي تعيق الإبداع، لكن التقاليد في نهاية المطاف تشير إلى سلوك يتفق عليه أفراد المجتمع، أما الإبداع فهو يتطلب الأصالة و التعبير الذاتي(و ليس التعبير الجماعي)، إضافة إلى الأفعال و الأفكار غير التقليدية، و يمكن أن تكون التقاليد مفيدة، و لكن يمكن أن تظل الفرد من ناحية أخرى لا سيما عندما يقبلها الفرد دون أن يقومها عن قرب "[3] .

فالبيئة التاريخية الحاضنة للقيم السلبية تنتج الإنسان السلبي المنفعل و الغير فاعل، إنه تماما كريشة في مهب الريح تعبث به الظروف و التحولات التاريخية كيفما تشاء دون أن يشارك في صناعة الحلول و المشاريع و البرامج المعالجة للأوضاع التاريخية المتردية.

---

[2]- برهان غيون، اغتيال العقل، المطبعة الوطنية للفنون المطبعية، ب ط، الجزائر، 1990، ص: 153.

[3]- مارك رنكو، تر: شفيق فلاح علاونة، الإبداع، العبيكان للنشر، ط 1، الرياض، 2012، ص: 50.

" إن البيئة التي تشجع علاقة التسلط (الرضوخ) لا تسمح بالمشاركة و لا باستخدام كل الطاقات العقلية و الفكرية مما يشكل عقبة كبيرة في طريق العيش الصحي السليم، ناهيك عن ممارسة الفعالية، فالبيئة الطبيعية التي تنمو فيها الفعالية هي تلك التي يعيش فيها ما تؤمن به من أفكار دون نفاق أو مداهنة أو حاجة للتمثيل، فبيئة القهر و الإرهاب الفكري التي تفرض على الناس العيش بوجهين، و تركيب عدد من الأقنعة واحدا فوق الأخر أو تبديلها بما يتلاءم مع كل مناسبة لا تسمح بعيش حياة الفعالية " [4].

ففي هذه البيئة الاجتماعية السلبية التي تتحكم في صناعتها الأوثان الاجتماعية، و العلاقات الصراعية الراسخة في كل المنظمات الماكرو سوسيولوجية و الميكرو سوسيولوجية يتحول الإنسان المنتمي إلى هذه البيئة كحتمية تاريخية من كائن فاعل إلى بهيمة إجتماعية منفعلة تؤدي كل الأدوار المسرحية الميتة مقابل المحافظة على الحاجات البي البيولوجية: الأكل، الشرب، النوم، التكاثر، إنه اللحظة التاريخية الفجيعة التي يعمم فيها الهزل الاجتماعي و يسود في كل مناحي الحياة وهذا ما نلاحظ انتشاره بقوة في المجتمعات العربية التي تعاني من التخلف با إنه يمثل العمود الفقري لأزمة التقدم العربي.

" أقول نعم و ذلك الوباء الشامل هو الهزل، و أزيدك بيانا فأقول إن داء الشبان جميعا هو استخفافهم بالأمور و أنهم لا يأخذون الحياة مأخذ الجد و لا ينفذون منها إلى صميم، فهم عابثون حتى جدهم هازلون حتى في همومهم و أكدارهم قانعون من الحياة بغلافها دون لبابها و بأعراضهم دون جواهرها...و أحسب أن الداء هو داء الأمة لا داء الشبان وحدهم، الداء وباء شامل لنفوس الجميع و الهزل في كل شيء هو ذلك الوباء، فإن أجد الجد لا يتنزه في نفوسنا عن الهزل المضحك و العبث الماجن و اللعب السخيف، أي شيء أجد من بكاء الحزين على ميته؟ أيمكن أن يمتزج هذا الشعور بالتصنع و المباهاة أو يحتاج الإنسان إلى من يعلمه البكاء على موتاه و يمثل لوعة الفراق و وحشة الحداد؟ لا و لكن تعالى فانظر إلى النائحة في المناحة و هي تتضع البكاء للباكيات و هن يقبلن هذا التصنع المضحك في هذا المقام المحزن و قل لي أمناحة هذه أم مهزلة و حقيقة هي ام تقليد؟ دع هذا و أنظر إلى تصنع الأفراح و نقلهم شورا العروس على عشرين مركبة و هو ينقل في مركبتين اثنين و قل لي من يخدع هؤلاء بهذا التصنع المكشوف؟؟ و دع هذا واصغ إلى ذلك البائع الذي يصيح على الملأ (العبد اللاوي شيلة جمل) و هو يحمل منها أربعا على يديه و قل لي ما معنى هذه المبالغة البلهاء إلا عبادة الظواهر و تأليه القشور و ازدراء الحقائق و الاصطلاح على الكذب الصبياني في وضح النهار؟ فنحن جميعا صرعى الظواهر بل صرعى ظواهر الظواهر بل صرعى ما هو أشد من ذلك و إمعانا في الظهور و التدله بالأعراض و القشور " [5].

و على إثر ذلك يتحول الهزل الاجتماعي الراسخ في الجماعة إلى قابلية للاستعمار و الاستعباد

[4]- جمال. جمال الدين، الإنسان الفعال، دار الفكر، ط 1، دمشق، 2004، ص: 38.

[5]- عباس محمود العقاد، مطالعات في الكتب و الحياة، منشورات المكتبة العصرية، ب.ط، بيروت، بدون سنة نشر، ص: 226.

انها قوانين التاريخ الذي لا تحابي أحدا و تؤكد أن ضياع الأخلاق على مستوى المجتمع يؤدي إلى تفتت الخريطة التاريخية للجماعة الذي يتحول بعد ذلك إلى احتمالين: تفتت الخريطة الجغرافية للمجتمع، أو احتلال اجنبي.

" و على الدوام سيطرت الأمم ذوات الخلق القوي على الأمم ذوات الخلق الضعيف أو المتردد مهما كان ذكاؤها، ومن ذلك أن الرومان قهروا الأفارقة بسهولة، و ذلك في زمن كان الرومان فيه قليلي التمدن و كان الأغا رقة (الإغريق) فيه أرقى بدرجات من قاهريهم ذكاء و ثقافة، و يستمر ذات الحادث على الظهور في الأزمنة الحديثة ومن ذلك أن عُبِد ثلاثمائة مليون من الهندوس يمتازون بمعارفهم الفنية و الفلسفية بسبب خلقهم الضعيف، و ذلك من قبل جيش انكليزي لا أهمية له عددا " [6] .

و البحث العميق في مخبر التاريخ يؤكد أن انهيار الأمم راجع إلى اضطرابات خطيرة تتم على مستوى الأيض النفسي الاجتماعي للفرد والجماعة يتمظهر في انحطاط الأخلاق و انتشار الترف و الإسراف في تبذير الأموال على الشهوات و الغرائز دون رادع أو حساب.

" و نحن إذا بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم، و هي التي حفظ التاريخ لنا خبرها كالفرس و الرومان و غيرهم، وجدنا ان العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي تغيرا نشأ عن انحطاط أخلاقها، ولست أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها ووجه الانحلال واحد في جميع الحضارات الغابرة، و هو من التشابه ما يسأل به مع أحد الشعراء عن كون التاريخ صفحة واحدة و إن اشتمل على عدة مجلدات، و الأمة واحدة بعد أن تبلغ تلك الدرجة من الحضارة و القوة حيث تطمئن إلى أنها لا تكون عرضة لهجوم جيرانها تبدأ بالتمتع بنعم السلم و الترف التي يمن الثراء بها عليها، فتذبل المزايا الحربية و توجب زيادة الحضارات حدوث احتياجات جديدة، و تنموا الأثرة، و أبناء الوطن إذ لا يبقى لهم بذلك من مثال عال غير التمتع السريع بالأموال التي تحصل على عجل يتركون للدولة أمر إدارة الشؤون العامة فلا يلبثون أن يفقدوا جميع الصفات التي كانت سبب عظمتها، و هناك يغير على الأمة الكثيرة التمدن جيران من البرابرة أو من أشباه البرابرة ذو احتياجات ضعيفة إلى الغاية مع مثل عال قوي جدا، ثم يقيم هؤلاء حضارة جديدة بأنقاض الحضارة التي قلبوها على رأساً على عقب، و على هذه الصورة هدم البرابرة إمبراطورية الرومان، و هدم العرب إمبراطورية الفرس، مع ما كان لدى تلك الإمبراطوريتين من تنظيم هائل، و ليست صفات الذكاء هي التي كانت تعوز الأمم المقهورة لا ريب، و ما كان بين الغالبين و المغلوبين من فرق في ذلك لا يحتمل القياس، و في زمن كانت روما فيه تحمل بذور الانحطاط كانت روما تشتمل على أروع الألباء و المتفننين و الأدباء و العلماء، و إلى ذلك الدور من تاريخ روما يرجع تقريبا جميع الآثار التي أوجبت عظمتها و لكن روما كانت قد خسرت العنصر الأساسي الذي لا

[6]- جوستاف لوبون، تر: عادل زعيتر، فلسفة التاريخ، دار العالم العربي، ط 1، القاهرة، 2012، ص: 81.

يقوم مقامه أي نمو في الذكاء، كانت قد خسرت الأخلاق" [7] .

بينما توجد مقاربات سوسيولوجية أخرى ترجع أساس الركود الاجتماعي و التخلف الحضاري المنتشر في الجسم التاريخي للمجتمع يرجع إلى اضطرابات على مستوى الايض السياسي و الاقتصادي، حيث أن المنظمات الماكرو سوسيولوجية تصبح في صراع مستمر مع المؤسسات و المنظمات الميكرو سوسيولوجية مما ينهك الجسم التاريخي للمجتمع و ربما يصل إلى مرحلة التعفن الاجتماعي حيث تحتل الجراثيم الاجتماعية الدورة التاريخية للمال و الوقت.

" إن المسار السياسي المتبع هو الذي يحدد طبيعة المؤسسات الاقتصادية التي يعيش الناس في ظلها، و أن المؤسسات السياسية هي التي تحدد الكيفية التي تتم بها هذه العملية، على سبيل المثال، تحدد المؤسسات السياسية لدولة ما قدرة المواطنين على مراقبة الساسة و مدى تأثيرهم في الطريقة التي يتصرفون بها، و هذا بدوره يحدد ما إذا كان الساسة يعملون كوكلاء و نواب عن المواطنين، رغم ما يشوب ذلك من نقص و ضعف، أم أن لديهم القدرة على إساءة استخدام السلطة المحولة لهم من الشعب، أو التي اغتصبوها من الشعب، من أجل تكديس ثرواتهم الشخصية و إتباع أجنداتهم الخاصة، و التي تلحق الضرر بالأجندات الخاصة بالمواطنين" [8] .

هذه التحولات السياسية العميقة على مستوى المنظمات الاجتماعية ترسخ ثقافة الاغتراب السياسي حيث يصبح المواطن في عجز تام، و تمثل في هذه الحالة معضلة تكون المؤسسات السياسية بؤس المعرفة و التفكير .

" و كما أن الإنسان الفرد و الشعب، هكذا أصبح المجتمع نفسه عاجزا عن، إذا فقد الكثير من سيطرته على وظائفه الحيوية و موارده المادية و الروحية في علاقته بالدولة التي تخضع بدورها لارادة القوى الخارجية، .....من هنا إن المجتمع يعجز عن تجاوز أوضاعه و إعادة بناء نفسه من جديد، فتتسع الفجوة و تتعمق بين واقعه الهزيل و أحلامه الضائعة، و من هنا ان الإنسان في هذا المجتمع لا يمكنه أن يتقبل وضعه، كما لا يجرؤ أن تكون له أحلام و طموحات إلى تجاوز أوضاعه، و تتصل بحالة الاغتراب هذه مشكلات التفكك الاجتماعي و السياسي، و خلخلة القيم و التبعية و الطبقية، و الطائفية و الفئوية، و السلطوية، فتسود علاقات القوة و النزاع لا علاقات التعايش و التضامن و التفاعل و الاندماج، و لا يقتصر التفكك على العلاقات بين الأقطار العربية، بل يسود أيضا داخل البلد الواحد، و تتغلب النزاعات الفئوية على حساب الإنسان و المجتمع، إن الجماعات التقليدية الوسيطة بين الفرد و المجتمع أو المواطن و الدولة

[7]- غوستاف لوبون، السنن النفسية لتطور الأمم، مؤسسة إقرأ، للنشر، ط1، القاهرة، 2015، ص: 108.

[8]- دارن أسيمو أوجلو – جيمس أ. روبنسون، تر: بدران حامد، لماذا تفشل الأمم، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط4، القاهرة، 2015، ص: (71 – 72).

(القبيلة، الطائفة، الفئة، الجماعة) ما تزال تزدهر في ظل الدولة التعسفية على حساب الأمة و الإنسان، و بقدر ما تعزز الجماعات، يفتقر كل من الفرد و المجتمع في صلب و جودة " [9] .

و هكذا نجد أن الاغتراب السياسي يؤدي إلى التفكك السياسي و الاجتماعي و انتشار القيم الثقافية السلبية و اختفاء القيم الثقافية الايجابية و دخول الدولة و الأمة في التبعية السياسية و الاقتصادية لدول المركز و ما ينتج عن كل ذلك من تضييع لفرص الإقلاع الحضاري و استيراد لمشاريع لا تتطابق مع معطيات الواقع الاجتماعي تؤول في غالبها إلى الفشل و يصبح المجتمع حقلا للتجارب بدلا من أن يكون ورشة للبناء و التعمير.

2-<u>المجازر التاريخية العظمى : ضياع الوقت و المال</u>

لما تنتشر متلازمة التخلف الحضاري في الجسم التاريخي للمجتمع يحدث نزيف تاريخي خطير على مستوى الدورتين التاريخيتين: الدورة الوقتية، الدورة المالية ، فإذا حدث استمرار لهذا النزيف التاريخي الخطير، ضاع المال و الوقت اللذين تتعلق بهما حياة الأمة و الدولة، ومع تواصل النزيف ستصل الأوضاع التاريخية إلى حالة السكتة التاريخية على مستوى المال و الوقت إنها قوانين التاريخ و هذا ما يؤكد عليه العلامة عبد الرحمان ابن خلدون في مقدمته:

" واعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها و اكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها و مصيرها انتها بها من أيديهم، و إذا ذهبت آمالهم في اكتسابها و تحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، و على قدر الاعتداء و نسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرا عاما في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، و إن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته، و العمران و وفوره و نفاق أسواقه إنما هو بالأعمال و سعي الناس في المصالح و المكاسب ذاهبين و جائيين، فإذا قعد الناس عن المعاش و انقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال و أبذعر الناس في الآفاق من غير تلك الايالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، و خلت دياره و خربت أمصاره، و اختل باختلاله حال الدولة و السلطان، لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة " [10] .

و هذا ما تعضده تحليلات المفكر العربي " **عبد الرحمان الكواكبي** " في أثر الاستبداد على حركة المال في المجتمع حيث يصبح المال معرضا دوما للإنتهاب و الاستلاب بكافة الوسائل التي يفرضها منطق التخلف الحضاري.

" إن الاستبداد يجعل المال في أيدي الناس عرضة لسلب المستبد و أعوانه و عماله غصبا، أو بحجة باطلة، و عرضة أيضا لسلب المعتدين من اللصوص و المحتالين الرائعين في ظل أمان الإدارة الاستبدادية، و حيث المال لا يحصل إلا

[9]- عبد الحليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم و الواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2006، ص: 92.

[10]- عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الهدى، ب. ط، الجزائر، 2009، ص: 320.

بالمشقة فلا تختار النفوس الأقدام على المتاعب مع عدم الأمن على الانتفاع بالثمرة. حفظ المال في عهد الإدارة المستبدة أصعب من كسبه، لأن ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه ، و لذا يضطر الناس زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله، و التظاهر بالفقر و الفاقة، و لهذا ورد في أمثال الأسراء أن حفظ درهم من الذهب يحتاج إلى قنطار من العقل، و أن العاقل من يخفي ذهبه و مذهبه و ذهابه، و أن أسعد الناس الصعلوك الذي لا يعرف الحكام و لا يعرفونه و من طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا و أوتاده عملا، فهم ربائط المستبد بذلهم فيثنون و يستدرهم فيحنون، و لهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها، أما الفقراء فيخافون المستبد خوف النعجة من الذئاب، و يتحبب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة، يقصد بذلك أن يغصب أيضا قلوبهم التي لا يملكون غيرها، و الفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة و نذالة، خوف البغاث من العقاب، فهم **لا** يجسرون على الافتكار فضلا عن الإنكار، كأنهم يتوهمون أن داخل رؤوسهم جواسيس عليهم، و قد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرهم فعلا رضاء المستبد عنهم بأي وجه كان رضاؤه " [11].

و النزيف الثاني الذي يمكن أن يكون له تأثير أكثر من تأثير ضياع المال ألا و هو ضياع الوقت و قد وضعه مالك ابن نبي الركيزة الثالثة في معادلة الحضارة المعروفة:

الحضارة = إنسان + وقت + تراب

فإذا انعدم استغلال الوقت استغلالا ايجابيا في تحقيق المشاريع و انجازها ضاعت نتائجها و تحولت المشاريع إلى مشاكل تزيد الوضع التاريخي للأمة و الدولة تعقيدا و أزمة بدلا أن تكون حلولاً جديدة توفر الوقت و المال من جديد للسير قدما نحوى مدارج الحضارة، و التمدن و النهضة.

" الزمن نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل، فهو يمر خلال المدن يغذي نشاطها بطاقته الأبدية، و يذلل نومها بأنشودة الساعات التي تذهب هباء، و هو يتدفق على السواء في أرض كل شعب و مجال كل فرد، بغيض من الساعات اليومية التي لا تعيض، و لكنه في مجال ما يصير ثروة، و في مجال اخر يتحول عدما، فهو يمرق خلال الحياة و يصب في التاريخ تلك القيم التي منحها له ما أنجز فيه من أعمال، و لكنه نهر صامت حتى إننا ننساه أحيانا و تنسى الحضارات في ساعات الغفلة أو نشوء الخط قيمته التي لا تعوض و مع ذلك ففي ساعات الخطر تمتزج قيمة الزمن بغريزة المحافظة على البقاء، فإذا استيقظت هذه الغريزة في هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب، لا يقوم الوقت بالمال كما ينتفي عنه معنى العدم، إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر، و حينما لا يكون الوقت من أجل الإثراء أو تحصيل النعم الفانية، أعني حينما يكون ضروريا للمحافظة على البقاء، أو لتحقيق الخلود و الانتصار على الأخطار، يسمع الناس فجأة صوت الساعات الهاربة، و يدركون قيمتها التي لا تعوض، ففي هذه الساعات لا تهم الناس الثروة أو السعادة أو الألم، و إنما الساعات نفسها، فيتحدثون حينئذ عن (

[11]- عبد الرحمان الكواكبي، الأعمال الكاملة للكواكب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، 2007، ص: 481.

ساعات العمل)، أعني العملة الوحيدة المطلقة التي لا تبطل، و لا تسترد إذا ضاعت، إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع، و أن يجدها المرء بعد ضياعها، و لكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة، و لا أن تستعيدها إذا مضت " [12].

و سوسيولوجيا إدارة الوقت تؤكد أن المنظمات الريادية في العالم هي التي تتحكم في هذه الثروة العظيمة.

" الوقت هو أكثر المصادر التي نمتلكها قيمته، و في بعض اللغات يستعمل هذا الاسم بشكل أكثر تكرارا و له قيمة أثمن من النقود، و رأسمالنا من الوقت يجب أن يستثمر بعناية فائقة، و من الممكن أن نصف حياتنا كوقت مخصص لنا على الأرض، و إن مهمتنا الأكثر أهمية في هذه الحياة هي الاستفادة القصوى من هذا الوقت، كما أن الوقت رأسمال ثمين، و هذا يتضح من خلال: الوقت محدود، فهو سلعة نادرة، لا يمكن شراء الوقت، لا يمكن ادخار الوقت أو تخزينه، لا يمكن زيادة الوقت، يمضي بشكل ثابت و دقيق، الوقت هو الحياة "[13] .

و هكذا نجد أن الوقت رأسمال ثمين في تحريك المعادلة التاريخية للحضارة و على هذا الأسس كل المشاريع الحيوية في التحديث و التنمية و النهضة تقوم على أساس ترشيد إدارة المال و إدارة الوقت.

3-<u>مشروع التنمية المتكاملة من خلال الصيدلية التاريخية لعلم الاجتماع</u>:

يضع علماء الاجتماع و الاقتصاد و التاريخ الأسس المنهجية لمشروع التنمية في ضوء الدراسات و النماذج و النظريات الحديثة لعلم اجتماع التنمية بهدف الوصول إلى تطبيقات حقيقية و انجازات فعلية مثمرة بهدف الخروج من الأوضاع التاريخية للقرون الوسطى التي تعيش فيها كثيرا من البلدان المتخلفة، و أكثر ما تحتاج إليه هذه المشاريع هو الجدية في التحليل و التشخيص ثم الجدية في التطبيق أو المنطق العملي بلغة **" مالك ابن نبي "** : " لسنا نعني بالمنطق العملي ذلك الشيء الذي دونت أصوله و وضعت قواعده منذ أرسطو، و إنما نعني به كيفية ارتباط العمل بوسائله و معانيه، و ذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئا، بغير مقياس يستمد معاييره من واقع الوسط الاجتماعي، و ما يشتمل عليه من إمكانيات، إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدمات محددة، غير أنه من النادر جدا أن نعرف أن المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة " [14]

و هكذا يحتاج الإنسان المتخلف عموما و العربي خاصة إلى أن يتدرب في مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية على التطبيق و ليس على الكلام فقط. حيث أكدت إحدى الأبحاث التي أجرتها جامعة هارفارد الأمريكية أن تقدم البشر في الخمسين عام الأخيرة يرجع إلى سببين: التدريب و الصيانة، تدريب البشر و صيانة

[12]- مالك ابن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، ط4، دمشق، 2006، ص: 146.

[13]- لوثر جي سيوارت، تر: رعد الصرن، إدارة الوقت، منشورات دار علاء الدين، ط4، دمشق، ص: 08.

[14]- مالك ابن نبي،مرجع سابق ، ص: 102.

الآلات، تدريب الإنسان على الفعالية و الفعالية المضاعفة، و تصبح ثقافة راسخة في مجال القيم و المعايير للفرد و الجماعة

" تتميز أدبيات التنمية البشرية المستدامة و الشاملة من أدبيات التنمية الاقتصادية التقليدية بتشديدها بشكل خاص على مشاركة الشعب في مختلف جوانب عملية التغيير الكمي و النوعي، أي الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية، فتذهب أبعد من مجرد رفع معدلات الدخل السنوي للفرد و النمو الاقتصادي، إنها دعوة لتنمية القدرات الإنسانية بهدف تأمين الإنصاف في توزيع فوائد التنمية و العدالة الاجتماعية و التغلب على الفقر، و تنشيط المجتمع المدني أو مشاركة مختلف طبقات المجتمع و فئاته و أقاليمه، و من ذلك مشاركة المرأة في الحياة العامة " [15] .

إننا نحتاج إلى سياسة ثقافية و تربوية رشيدة تهدف لبناء إنسان الحضارة الذي يتحمل كل تبعات و مسؤوليات هذا المشروع التاريخي المنقذ للجماعة من الإفلاس التاريخي الذي على أثره يضيع كل شيء. " و بناء على ما سبق، فالسياسة العامة للمجتمع و التربوية منها على درجة الخصوص ينبغي أن يكون منطلقا في البناء و التعمير و في التربية و التأهيل بناء شبكة العلاقات الاجتماعية و ترسيخ و جودها و ضمان شروط صحتها و فعاليتها و استمرارها من خلال إعداد الإنسان الذي يعرف قدره في المجتمع و موقعه فيه و دوره الاجتماعي الذي ينبغي أن يضطلع به فيه لتحافظ هذه الشبكة على عافية المجتمع لأن عافية المجتمع من عافيتها " [16] .

و هكذا فإن إنسان الحضارة هو الإنسان الذي يؤمن بمنطق العمل والحركة، لا منطق الأفكار والكلام

" الم نقل : إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة فهو لا يفكر ليعمل ، بل ليقول كلاما مجردا ، بل أكثر من ذالك ، فهو أحيانا يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا ويقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط ومن هنا يأتي عقمنا الاجتماعي ، فنحن حالمون ينقصنا المنطق العملي " [17] .

و نعتمد في هندسة مشروع التنمية على العلم في كل مراحل التنمية ابتداء من مرحلة التشخيص و التحليل و انتهاء بمرحلة العلاج و التنفيذ.

" يقول جواهر لا ل نهرو: العلم وحده هو القادر على حل مشكلات الجوع و الفقر و المرض و الجهل و الخرافات و العادات و التقاليد البالية، و الثروات الهائلة الآيلة إلى النضوب، و البلدان الغنية التي تتضور شعوبها جوعا و هل هناك من يجرؤ على تجاهل العلم؟ فنحن نلتمس العون منه في كل أمر ... و لا وجود في المستقبل إلا للعلم، و لكل من يناصر العلم " [18] .

---

[15]- حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2000، ص: 955.

[16]- عمر النفيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة، شركة الأصالة للنشر، ط3، الجزائر، 2017، ص: 275.

[17]- مالك ابن نبي، مرجع سابق، ص: 146.

[18]- ماكس بيروتز، تر: وائل أتاس، ضرورة العلم، المجلس الوطني للثقافة، ب.ط، الكويت، 1999، ص: 07.

و أهم منظمة اجتماعية يتم على مستواها: وضع الجذور التاريخية للإقلاع الحضاري النهضوي هي المدرسة.

" يجمع المفكرون اليابانيون، و كل من درس و حلل التجربة اليابانية أن التعليم السليم هو السِرُ الذي يقف وراء النجاح المذهل في عالم الأعمال والصناعة، و هو الذي حقق المعجزة الاقتصادية التي نظرت إليها دول العالم باحترام بالغ، و بالاهتمام بالعلم و التعليم حاولت دول أخرى مثل كوريا الجنوبية تقليد التجربة اليابانية و حققت ذلك...." [19].

و ينبغي أن تكون المنظومة التربوية المسئولة عن ترسيخ التنمية و التحديث في المجتمع المتخلف كالشجرة لها جذور تمثل التراث و أغصان و جذوع و ثمار تمثل الحداثة و هذه الازدواجية هي الشرط الأساسي لإقامة نهضة صحيحة.

"ليست الازدواجية في الثقافة العربية مرض يجب التخلص منه، بل هي محرك هذه الثقافة، و مصدر ديناميتها، و فكرة إبطال هذا الصراع بالحيلة أو بالقوة ليست ساذجة فقط، و لكنها لا يمكن أن تقود الا إلى تدمير الثقافة و العقل، أي إلى التدمير المتبادل..... إذ أن موقفنا هو القبول بهذا التناقض، بل تعميقه، و هذا يعني أن نأخذ ما استطعنا من الغرب و لا نؤخذ به، و نحيي ما أمكننا من التراث و لا نحيا به، و من هذا التناقض المثري، أو الإثراء المتناقض سوف تنبع حلول حقيقية "[20] .

و هذا ما تؤكده كثيرا من الدراسات الاجتماعية الجادة، و البحوث العلمية المتخصصة في تاريخ الحضارات.

" فحقيقة تنمية المجتمع مرتبطة بواقع المجتمع نفسه، عقيدته، تاريخه، فكره، و ثقافته، و لذلك فلا نستطيع استيراد تنمية مفصولة عن عناصر المجتمع المذكورة آنفا، و في ذلك يؤكد مالك ابن نبي على أنه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول و المناهج مغفلا مكانة أمته و مركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره و عواطفه و أقواله و خطواته، مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولا من الشرق أو الغرب فإن ذلك تضييعا للجهد و مضاعفة للداء، إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل، و انتحار " [21] .

و هكذا مشروع التنمية الناجح في المجتمعات المتخلفة هو الذي يقوم بإنشاء منظومة تربوية فعالة منتجة للمعرفة و منظومة قانونية فعالة أيضا منتجة للعدل كمادة تاريخية تنظم العلاقات بين البشر.

" و العرب تتوافر لديهم الموارد البشرية و المادية اللازمة للنهوض بالعلم و التكنولوجيا و الشيء الأول الذي يفتقرون إليه في الوقت الراهن هو نظام منطقي و فكري واضح يلبي الاحتياجات الجماعية للسكان و يقوم على أساس المعرفة و الحرية، على اعتبار أن البشر يختصون بميزة التفكير، و بالتالي، يجب إصلاح التعليم في كافة مستوياته في العالم العربي لتحويله من عملية تلقين المعلومات إلى عملية تعلم التلميذ كيفية تشغيل عقله بصورة ناقدة و توفر له خبرة عملية

[19]- جمال جمال الدين، مرجع سابق ، ص: 105.

[20]- رشيد زرواتي، التنمية بين الميادين و النظريات و النماذج، جسور للنشر و التوزيع، ط1، الجزائر، 2017، ص: 57.

[21]- أحمد الزوبل، عصر العلم، دار الشروق، ط5، القاهرة، 2005، ص: 201.

مباشرة، و يجب كذلك القضاء على الأمية أو تخفيض نسبتها على الأقل، و لا يمكن لقاعدة البحث و التطوير بشكلها الحالي أن تعمل بفعالية، و هناك حاجة إلى رؤية جديدة... أما الشيء الثاني فهو يتمثل في إنشاء نظام قانوني جديد يعن بوضوح الحدود بين المجالات المدنية و الثقافية و الدينية و ينطبق علة جميع المواطنين بدون استثناء "[22] .

وعلى هذا الأساس ينبغي لكل أمة تهدف إلى توطين نهضة الحضارة على مستوى الخريطة الجغرافية للمجتمع ينبغي أن تحدث تنمية شاملة ومتكاملة على مستوى الخريطة التاريخية للجماعة أي بناء أنساق الحضارة بتشييد المنظومة الأخلاقية المنتجة للواجب والمنظومة التربوية المنتجة للمعرفة والمنظومة القانونية المنتجة للعدل والمنظومة الإقتصادية المنتجة للعمل ، إنها اللحظة التاريخية التي يستيقظ فيها الجسم التاريخي للدولة والأمة من الغيبوبة السوسيولوجية التي تسببها له متلازمة التخلف الحضاري .

خاتمة:

لا تزال الأمم و الشعوب المتقدمة تتنافس في الإبداعات و الابتكارات و الاختراعات و الحلول في كافة الميادين، و الأمم المتخلفة تعيش حياة الترقيع الاجتماعي في كل مجال و تشتري المنتجات و السلع (عالم الأشياء)، لتثبت لشعوبها أنها في الطريق الصحيح للتنمية، و لكن الأزمات المتكررة و الانهيارات و الانفجارات التاريخية تفضح هذه الحلول المزيفة، فالتحليل العلمي لمتلازمة التخلف الحضاري يؤكد أن العودة إلى التاريخ الحضاري يستلزم الاستثمار في الإنسان و ليس في المادة فلا يمكن حل المشاكل التكنولوجية و البيولوجية المطروحة في أي مجتمع إلا بعد حل المشاكل الاجتماعية أي تسوية العلاقات الاجتماعية و نقلها من الصراع إلى التعاون و تغير نمط القيادات: من الأوثان الاجتماعية إلى الأبطال في كل مجال و إعادة تأسيس منظومة تربوية منتجة للمعرفة، و منظومة اقتصادية منتجة للعمل و منظومة قانونية منتجة للعدل و منظومة أخلاقية منتجة للواجب و بعد ذلك تستطيع الجماعة أن تشيد ناطحات السحاب و الطائرات و البوارج و الخوارق التكنولوجية أنه الطريق الصحيح و الحقيقي للتنمية.

المراجع:

01- أحمد الزوبل، **عصر العلم**، دار الشروق، ط5، القاهرة، 2005

02- برهان غيون، **اغتيال العقل**، المطبعة الوطنية للفنون المطبعية، ب ط، الجزائر، 1990

03- جمال جمال الدين، **الإنسان الفعال**، دار الفكر، ط 1، دمشق، 2004

04- جوستاف لوبون، تر: عادل زعيتر، **فلسفة التاريخ**، دار العالم العربي، ط 1، القاهرة، 2012

05- حليم بركات، **المجتمع العربي في القرن العشرين**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2000

06- دارن أسيمو أوجلو – جيمس أ. روبنسون، تر: بدران حامد، **لماذا تفشل الأمم**، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ط4، القاهرة، 2015

07- رشيد زرواتي، **إشكالية الثقافة في التنمية بالبلدان المتخلفة**، دار عياش للطباعة والنشر، ط 1، الجزائر، 2011

08- رشيد زرواتي، **التنمية بين الميادين و النظريات و النماذج**، جسور للنشر و التوزيع، ط1، الجزائر، 2017

[22]- أحمد الزوبل، مرجع سابق ، ص: 203.

09- عباس محمود العقاد، **مطالعات في الكتب و الحياة**، منشورات المكتبة العصرية، ب.ط، بيروت، ب.س

10- عبد الحليم بركات، **الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم و الواقع**، مركز دراسات الوحدة العربية ط1، بيروت، 2006

11- عبد الرحمان الكواكبي، **الأعمال الكاملة للكواكب**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، 2007

12- عبد الرحمان بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، دار الهدى، ب. ط، الجزائر، 2009

13- عمر النفيب، مقومات **مشروع بناء إنسان الحضارة**، شركة الأصالة للنشر، ط3، الجزائر، 2017

14- غوستاف لوبون، **السنن النفسية لتطور الأمم**، مؤسسة إقرأ، للنشر، ط1، القاهرة، 2015

15- لوثر جي سيوارت، تر: رعد الصرن، **إدارة الوقت**، منشورات دار علاء الدين، ط4، دمشق ، د.س

16- مارك رنكو، تر: شفيق فلاح علاونة، **الإبداع**، العبيكان للنشر، ط 1، الرياض، 2012

17- ماكس بيروتز، تر: وائل أتاس، **ضرورة العلم**، المجلس الوطني للثقافة، ب.ط، الكويت، 1999

18- مالك ابن نبي، **شروط النهضة**، دار الفكر، ط4، دمشق، 2006